القراءة المعاصرة للنص القرآني
إشكاليات المنهج وأدواته
في حوار مع د. محمد شحرور

الحياة الطيبة: نرغب أن ننطلق في حوارنا من سؤال منهجي يرتكز إلى إشكالية مفادها: ما هي المبررات الفكرية لكل قراءة للقرآن توصف بالمعاصَرة؟ ألم يوجَّه القرآن لقوم محددين كانوا مخاطبين به بالدرجة الأولى؟ وبالتالي كيف يمكن الرجوع إلى القرآن مجدداً لإنتاج معانٍ لم يكن يفهمها أولئك الناس بل لم تكن لتخطر لهم على بال؟

د. شحرور: هذا السؤال قانوني وشرعي في حال واحد فقط، وهو فيما لو كان القرآن من تأليف محمد(ص) أو كان من عند الله ولكنه موجَّه إلى العرب في القرن السابع الميلادي، وليس النبي محمد(ص) خاتم الأنبياء والرسل، وأن رسالته محلية وليست عالمية صالحة لكل زمان ومكان؛ وذلك لأن هذه الرسالة بناءً على هذا الفرض نزلت للعرب في ذلك الزمان وضمن أطرهم المعرفية الخاصة بهم، فلا يحق لأحد غيرهم أن يفهمها بطريقة مختلفة.

وأما إذا قلنا:

١- إن القرآن صالح لكل زمان ومكان.

٢- إن رسالة الإسلام عالمية.

٣- إن محمداً(ص) هو خاتم الرسل والأنبياء.

إذا قلنا بهذه الأمور الثلاثة وكان المعاصرون للنبي(ص) بضعة آلاف من العرب، فمن نحن وما هو موقعنا من هذه الرسالة؟ هل

نحن نكرات؟ وهل توقفت العقول عندهم؟ وإذا كان القرآن لهم وحدهم فليأخذوه. وإذا كان لنا ولهم، فهم فهموه بشكل محدد، ولنا الحق كل الحق في فهمه بشكل آخر مختلف. وأنا لا أريد أن أفهم القرآن من خلال عبد الله بن عباس أو غيره، أريد أن أفهمه على أساس أنه نص موجَّه لي. أليس القرآن لكل أهل الأرض؟ أو لست واحداً من أهل الأرض؟ ويحق لي أن أفهمه كما يحق لعبد الله بن عباس، وحقي لا يقل عن حقه إطلاقاً. وأعتقد أنَّ الله عندما أنزل القرآن أخذ بعين الاعتبار أن القارئ للقرآن سيكون عبد الله بن عباس كما سيكون محمد شحرور وغيره.

وهذا النص موجود بين يدي أستطيع الرجوع إليه، وأفهم منه ما لم يفهمه الماضون، هل يمكن أن تقتنع أمة يبلغ عديدها ألفاً وثلاثمائة مليون مسلم، أن عبد الله بن عباس يفهم القرآن أكثر منهم جميعاً؟! فالنص القرآني هو نص إلهي مقدس نزل للناس كافة وأنا منهم فربما أفهمه كما فهمه السابقون وربما أخالفهم في فهمهم، وهذا مثال لنص آخر: «إذا قال شخص ما: مجموع زوايا المثلث يساوي مئة وثمانين درجة». لنفرض أن هذا النص سمعه ثلاثة أشخاص: بدوي، وطالب في البكالوريا، وعالم فضاء. البدوي يسأل ما هو المثلث؟ طالب البكالوريا يقول: صحيح. وعالم الفضاء يقول: على أقليدس يساوي ١٨٠ درجة، وأما على رأي ريمر ولاكاتشوفسكي فلا يساوي ١٨٠ درجة.

فهؤلاء الثلاثة سمعوا نصاً واحداً وكان لكل منهم انطباع خاص، والأفهام الثلاثة صحيحة في الأجواء المعرفية لأصحابها، ومنتهى ما كان موجوداً في عصر النبي(ص) من الرياضيات هو الجمع والطرح والضرب والقسمة، ولم يكن هناك تحليل رياضي أو هندسة تحليلية ولا رياضيات حديثة، أو نظرية الاحتمالات. ومن حقي بعد أن عرفت هذه النظريات الحديثة أن أعمد إلى آيات القرآن وأطبق عليها هذه النظريات.

الحياة الطيبة: من خلال جوابك عن السؤال الأول نجد أنك تستخدم مصطلحات الهندسة والرياضيات. وبعبارة أخرى، لقد انطلق «المهندس» محمد شحرور من خلال مجموعة من القبليات الرياضية ليفهم النص المطلق والإلهي، فما هو مدى اعتبار هذا المنهج وحجيته؟ وكيف يمكن تبرير هذا الفهم وتعميمه للآخرين مع أنه مرتبط بأمور نسبية؟

د. شحرور: لا أرى في ذلك مشكلة؛ ولذلك أنا أسميه قراءة معاصرة ولك كل الحق في أن تقرأ القرآن قراءة معاصرة من زاوية أخرى. وأنا أُقِرُّ بأن هذا الفهم نسبي منسوب إلى القرن العشرين وأعتقد بأن الآتين سوف يكونون في غاية التخلف والعجز، إذا اعتمدوا

قراءة محمد شحرور ولم ينتجوا قراءات جديدة تخصهم. وأنا صاحب نظرية خاصة وقد طرحتها مع بيان مصطلحاتي الخاصة بي، ومن حق كل شخص أن يؤمن بها أو يرفضها.

البينات: هل لكم أن تبينوا لنا أسس المنهج الذي اعتمدتموه وسرتم عليه مع شيء من الإيضاح؟

د. شحرور: يرتكز منهجي على مجموعة من الأسس.

١- **نفي الترادف:** لا ترادف في ألفاظ القرآن، فكل مفردة من مفرداته تدل على معنى محدد يختلف عن مدلول اللفظة الثانية المشابهة «جاء» غير «أتى»، «النبي» غير «الرسول»، «فوق» غير «أكثر» و «القرآن» غير «الكتاب» و «الذكر» غير «الفرقان» إلخ... وقد بينت هذه المصطلحات في كتابي «**الكتاب والقرآن**».

٢- **الترتيب:** إن مواضيع القرآن متفرقة؛ وذلك أن القرآن يتحدث عن الموضوع الواحد في مواضع متعددة، فلابد من جمعها وترتيبها. ويمكن اختيار ترتيب المصحف أو ترتيب النزول.

٣- **رفع التناقض:** وذلك أنه بعد ترتيب آيات القرآن وجمعها لابد من رفع التقاطعات الموجودة بينها وهذا ما يصطلح عليه في العلوم بـ "Cross Examination"، وهو مفهوم علمي يمكن تطبيقه على القرآن وغيره.

٤- **مفهوم الآية:** لابد من تحديد مفهوم الآية والسورة، وذلك أن الله تحدى الناس بأن يأتوا بعشر سور، وقد طالعت كل الأدبيات التراثية، فلم أجد تحديداً واضحاً لها في التراث، فما هي الشروط الفنية للسورة حيث إنه إذا قَبِلَ أحدهم التحدي وانبرى للإتيان بعشر سور، ألا ينبغي لنا أن نحدد له ما هو المطلوب منه؟ والسورة تتفاوت بين ثلاث آيات وأخرى تبلغ ٢٨٦ آيةً. والقرآن تحدى بسورة وبعشر سور. فلا بد إذن من تحديد مفهوم السورة والمواصفات المطلوبة لتحققه.

ولم يعطِ المفسرون طوال قرون متمادية هذه الشروط والمواصفات. بل صَوَّر التفسير التراثي الإعجاز القرآني على أنه مباراة بين الله وشعراء العرب، فتغلب الله عليهم. ومن هنا غلب الشعر على التصور التراثي للقرآن، مع أن الله حذرنا من التعامل مع القرآن كما نتعامل مع الشعر؛ الشعر كاذب والقرآن حقيقة، وأعذب الشعر أكذبه. ولم يفرِّق التراث التفسيري بين الوالد والأب، وبين جاء وأتى، وبين الرسول والنبي.

البينات: ولكن دعوى عدم التفرقة غير مبررة؛ وذلك لأنَّ المفسرين والمتكلمين فرّقوا بين

الرسول والنبي، فمن نزل عليه الوحي هو نبي ومن بعث برسالة إلى قوم هو رسول. وهل هناك من أساس آخر في منهجكم؟

د. شحرور: نعم، الأساس الخامس هو «المصداقية» والنموذج الذي يبين هذا الأساس، هو: إن الله يقول: ﴿**الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾[1].

هنا أسأل: الزنا موجود في الدنيا أم في الآخرة؟ وهل يوجد الزنا في طوكيو وغيرها من مدن الأرض، أم لا يوجد؟ لابد أن الجواب بالإيجاب. فمن هو الزاني ومن هو المشرك؟ أرشدوني إلى مصداق لهما وكذلك قوله تعالى: «الرجال قوامون على النساء» ألا يوجد في اليابان رجال ونساء؟ الله في هذه الآيات يتحدث عن النساء جميعاً.

وعندما تلاحظ المعنى اللغوي تجد أن بعض الكلمات لها أكثر من معنى نرجح أحد هذه المعاني على أساس المصداقية حتى لو كان معنى ضعيفاً عند أهل اللغة. ولو رجعنا إلى آية: ﴿**الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً**﴾ فمن هو المشرك، هنا؟ المشرك من الشراكة وسمي بذلك؛ لأنه جعل لله مشاركاً في ربوبيته، وفي الآية يقول الله سبحانه: إن الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، فما المراد من الشرك هنا؟ لا يمكن أن يكون المراد هو الشرك بالله؛ وذلك لأن الله في العقوبة، قد شرع العقوبة للزانية والزاني ولم يعاقب المشرك، فلو أخذنا امرأة بتهمة الزنا فقالت: «أنا مشركة بالله» فهل نتركها ونجلد الزاني وحده؟ فما الربط بين الزنا والشرك.

الحياة الطيبة: لكن العقوبة جعلت على عنوان الزنا والمشركة هنا زانية، فتعاقب لزناها لا لشركها.

د. شحرور: القرآن يقول: أو «مشركة».

الحياة الطيبة: ما المقصود من النكاح في هذه الآية؟

د. شحرور: النكاح هو الجماع.

الحياة الطيبة: ليس كل جماع نكاحاً والمقصود من النكاح هنا هو الزواج وليس السفاح.

د. شحرور: كيف وصفه الله بأنه زانٍ؟

الحياة الطيبة: الآية هنا في مقام بيان حكم تشريعي؛ حيث تريد الآية أن تقول: إن الناس يريدون الزواج، فهل يمكن أن يتزوج المؤمن بزانية؟ الآية تقول: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

وبعبارة أخرى، تريد الآية أن تقول: المرأة المتصفة بالزنا لا يحق للرجل المتدين الزواج منها، ولا تريد الآية أن تقول: إنه إذا تحققت عملية الزنا بين شخصين أحدهما زانٍ والآخر مشرك يجلد الزاني منهما ولا يجلد المشرك، فالمشرك زانٍ أيضاً وتترتب عليه كل أحكام الزنا وآثاره.

د. شحرور: ولماذا ذكر المشرك في الآية؟

الإحياء: ذكرته الآية لتقول: إن المشركة والزاني أو العكس، كل منهما كفء للآخر، أو لأنهما لا يبالون ولا يهتمون بالشرع فأعرض في هذه الآية عن بيان حكمهم، ويؤيد بعض الوجوه في تفسير الآية الروايات الواردة في أسباب النزول.

د. شحرور: إذا كان المراد من النكاح الزواج، فلماذا وصفه الله بالزاني، فعندما يتزوج لا يعود زانياً؟

الإحياء: ليس الكلام عن الزنا الفعلي وعن عملية حالية. وبعبارة أخرى، ليس الكلام إخباراً وإنما هو تشريع، فلا يريد الله أن يخبرنا أن عملية الزنا تتم دائماً بين زانٍ ومشرك بل يريد أن يبين حكم الزواج من الزانية وهو تحريم الزواج من الزانية مادامت زانية.

د. شحرور: وهذا معناه أن الله سد باب التوبة في وجه الناس.

: إذا تابت يرتفع عنها الحكم.

د. شحرور: ما هو فعل الجنس في اللغة العربية.

الإحياء: توجد ألفاظ متعددة للتعبير عنه منها ما هو كنائي كالوطء ومنها ما هو صريح.

د. شحرور: سوف أعطيك احتمالات الزنا جميعاً

١- عازب وعازبة= زانٍ وزانية

٢- متزوج ومتزوجة = مشرك ومشركة

٣- متزوج وعازبة= زانية ومشرك.

٤- متزوجة وعازب= مشركة وزانٍ.

هذه هي الاحتمالات الواردة في كل حالات الزنا. وهذه الآية تنطبق على كل حالات الزنا في كل أنحاء الأرض.

الإحياء: ليس من الضروري أن نتفق على فهم هذه الآية. وعلى أي حال، هذه هي الأسس التي ذكرتها لمنهجك. اسمح لنا بمناقشتها، إننا نجد أن الدكتور شحرور اختار أضعف الأقوال عند اللغويين وهو مبدأ عدم الترادف وبنى عليه منهجه وأراد أن يحكِّمه في القرآن كلِّه؟ وهذا لا يقبله أحد.

د. شحرور: أنا أؤمن بمبدأ عدم الترادف وإذا كنت ترى أنه ضعيف فليكن ضعيفاً وفي اللغة العربية يوجد مدرستان: مدرسة الترادف، ومدرسة عدم الترادف.

أنا أثبت أن اعتماد الترادف في القرآن يؤدي إلى كذب كل التفاسير للقرآن، عندما تنظر إلى الحياة ترى أنها مخالفة لما فهمه المفسرون من القرآن.

الحياة الطيبة: المهم أن ننطلق من دليل، فعندما نُحْكِم الأسس التي نبني منهجنا عليها، فلتكن كل التفاسير الأخرى خاطئة ولا مشكلة في ذلك لدينا، فلا نريد أن نُحَكِّم الإجماع في فهم القرآن. ولكن لا يمكن الانطلاق من مصادرات لا دليل عليها.

د. شحرور: أنا أعتقد أن الفقهاء متمسكون بالترادف حتى الرمق الأخير؛ لأن إسقاط الترادف يؤدي إلى سقوط الفقه نفسه، فعندما تقول الوالد غير الأب يسقط الفقه.

الحياة الطيبة: هذه دعوى غريبة تحتاج إلى نقاش طويل. ونريد أن ننتقل إلى الأمر الثاني وهو الترتيب؛ حيث تقول: إن الآيات القرآنية متوزِّعة في القرآن كله، فما هو الأساس الذي تعتمده في الترتيب، حيث إن كل مفسر قد تكون له رؤية خاصة في ترتيب القرآن.

د. شحرور: هذا صحيح وأنا أعتقد بوجود طريقتين لترتيب آيات القرآن وسوره:

١- إما على أساس ما هو موجود في المصحف.

٢- وإما على أساس ترتيب النزول.

وأنت بالخيار بين هاتين الطريقتين، وقد حدَّدَتْ بعض المراجع ترتيب النزول، وليس الفرق كبيراً بين الأساسين، فربما تكون النتائج واحدة أو متقاربة.

ولابد من أخذ الآيات التي تتحدث عن موضوع واحد للحصول على تصور متكامل للتصور القرآني عن هذا الموضوع، وإذا لم أفعل ذلك يكون تعضية وهذا ما نهى عنه القرآن. وقد بينت ذلك في كتابي.

ولا يمكن أن تأخذ آية واحدة من القرآن أو نصف آية وتستخرج منها مفهوماً قرآنياً. وقد فرَّقت بين الآية والجملة بأن الآية فيها موضوع واحد حتى لو كانت كلمة واحدة. فكلمة ﴿**والفجر**﴾[٢] وحدها آيةٌ وليست جملة وقوله تعالى: ﴿**وليالٍ عَشْرٍ**﴾[٣] آية أخرى وقد فصلتا في القرآن وإذا جمعناهما لا يحدث أي خلل على المستوى اللغوي، وأما على المستوى القرآني، فلا يمكن الجمع بينهما. ومن حقي أن أسأل لماذا كانت بعض الآيات كلمة واحدة وبعضها الآخر صفحة كاملة. والضابط الذي ذكرته هو أن الآية فيها موضوع واحد مغلق؛ ولذلك لا يصح الوقف في بعض الموارد حتى لو انتهت الآية وذلك كما في قوله

تعالى: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللّهَ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، وانتهت الآية وبدأت آية أخرى بقوله تعالى: ﴿مِن دُونِ اللّهِ...﴾ فماذا يريد الله من إنهاء الآية مع أنه لغوياً لا يصح الوقف.

هذه الأسئلة وأشباهها طرحتها على نفسي وحاولت الإجابة عنها، وربما طرحها غيري، ولا أدعي أنني أول من طرحها.

آيات: المصداقية التي تتحدث عنها مبنية على مصادرة مختلفة عما يقبله الآخرون؛ وذلك أن آيات الأحكام قوانين جعلية تريد تغيير الواقع، لا أنها تخبر عنه وبالتالي فهي قابلة للنقض تبعاً لالتزام الناس أو عدم التزامهم بها في مقام التطبيق. بينما نرى أن الدكتور شحرور، بحسب حديثه عن المصداقية يتعامل معها، وكأنها قانون طبيعي غير قابل للنقض.

الدكتور شحرور: الزنا ظاهرة موجودة في الواقع يخبر الله عنها وبعد ذلك يقول ﴿حُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أرني مثالاً واحداً للحالة التي أشرتم إليها: زانية يريد أن يتزوجها زانٍ، كيف يكون زانياً ومتزوجاً في وقت واحد فالزاني يزني ولا يتزوج. وهذا الوهم ناشئ من القول بالترادف بين النكاح والزواج.

آيات: نحن لا نقول: إن الزنا زواج والزاني يتزوج. بل نريد أن نقول. إن الزاني إذا أراد أن يتزوج لا يحق له الزواج من امرأة غير زانية.

د. شحرور: أرني ذلك في الواقع ولو حالة واحدة.

آيات: الآية لا تخبر عن واقع. ألا ينبغي أن نفرِّق بين آية تخبر عن واقع، وآية أخرى تشرع واقعاً فتأمر وتنهى؟ فهذه الآية تنهى المؤمنين عن الزواج من الزانيات إلا بعد التوبة، فذلك أمر آخر، وأنت تؤمن بوجود آيات آمرة وأخرى ناهية كما تشير إلى ذلك في كتابك.

د. شحرور: الأمر والنهي ورد في آخر الآية بقوله تعالى: ﴿حُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

آيات: نعم، صحيح، القسم الأول من الآية لبيان الموضوع وبعد بيان الموضوع ذُكِرَ الحكم. حول فكرة الترادف أنت تؤمن بعدم وجود الترادف في القرآن...

د. شحرور: نعم الترادف غير موجود في القرآن وهو موجود في الشعر؛ لأن الشعر لا يعيبه الترادف، وذلك لأن الشاعر قد تلجئه ضرورات القافية والوزن لاستخدام كلمة محل أخرى فإذا كانت قصيدته دالية يستخدم كلمة «والد» بدل «أب» وهكذا. وقد حذّرنا الله من التعامل مع القرآن كما نتعامل مع الشعر وأنا أفهم الإعجاز في القرآن على النحو الآتي:

وذلك أن الإنكليزي يعترف باستحالة أن يكتب شكسبير بدقة نيوتن، أو أن يكتب نيوتن بجمالية شكسبير. وكذلك الألماني يعترف باستحالة الجمع بين دقة آينشتين وجمالية غوته في نص واحد. وهذا موجود في القرآن حيث اجتمع جمال الأسلوب مع الدقة كأروع ما يكون اجتماع هذين الأمرين.

ونحن المسلمين، ركَّزنا خلال أربعة عشر قرناً على المنهج البياني. وما قمت به هو أنني حاولت التركيز على البعد الثاني وهو بعد الدقة العلمية التي لا تتحمل أي نوع من الترادف، فالعلم إذا وجد خليتين متشابهتين، وتختلف إحداهما عن الأخرى واحداً بالمليون يعطي لكل منهما اسماً خاصاً. فهل يمكن أن تكون صناعة الله الذي خلق هذا الكون أدق من صياغته؟! إذا اعترفنا بالدقة في صياغة كتاب الله نعترف بأن فهمنا نسبي، ولذلك دعوت في كتابي إلى إعادة النظر في كل ما كتبته بعد خمسين سنة؛ لأنني أقف على أرضية القرن العشرين، ومن يقف على أرضية القرن الواحد والعشرين لا بد أن يفهم القرآن بشكل مختلف.

الحياة الطيبة: لقد طبقتم منهج نفي الترادف على مفردتي «بعل و «زوج» وقلتم: إن القول بالترادف بين هاتين المفردتين يوقعنا في تناقض لا فكاك منه، وذلك بين آيتين إحدهما من سورة المؤمنون والأخرى من سورة النور إحدى الآيتين تقول: ﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ﴾(٤) والأخرى تقول: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾(٥) فما هو وجه هذا التناقض المدعى بناء على الترادف؟

د. شحرور: لم أكن أفرِّق في كتابي الأول بينهما وقد تداركت ذلك في كتابي الرابع «نحو أصول جديدة للفقه» وذلك أن الرجل يستطيع رؤية زوجته عارية –وبالمناسبة لم يذكر المحارم جميعاً بل نصفهم فالصهر والعم والخال غير مذكورين في آيات الزينة وقد فهمت أن عدم ذكر سائر المحارم يراد منه جواز أن يرى هؤلاء المذكورون في الآية المرأة عارية بالعرض، باعتبار أنهم يعيشون معاً في بيت واحد– وعلى أي حال، ففي آية حفظ الفرج استثني الزوج وفي آية الزينة استثني البعل وكلمتا الزوج والبعل ليستا مترادفتين فالمطلَّقة لا تقول عن الرجل الذي كانت مرتبطة به زوجاً وإن كان يسمى بعلاً وورد في الآية: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ فلم يقل «أزواجهن» فالبعل في اللغة: «المؤاكل والمؤانس والمجالس...» وليس الناكح. فالمرأة عندما تكون في المنزل مع أخيها وأبيها لا يكون الرجل زوجاً لها بل بعلاً. فلا يجوز لها أن تكشف نفسها أمامه في محضرهم.

الآيات البينات: قد نوافقك على عدم الترادف بين البعل والزوج ولكن لم تتضح دعوى التناقض بين الآيتين بناءً على الترادف. أنا أدعي أنه حتى لو كانت هاتان الكلمتان مترادفتين فلا تناقض بين أن نقول للمرأة: يجوز لك أن تكشفي زينتك أمام زوجك. ونقول لها مرة أخرى: يجوز لكِ أن تكشفي فرجك أمام زوجك؟

د. شحرور: لا، التناقض موجود؛ لأن الآية تأمر بحفظ الفرج ثم بعد ذلك تنهى عن كشف الزينة وتستثني البعل وغيره ممن ذكر في الآية. القرآن دقيق، وأنا عندما أقرأ القرآن أجعل نصب عيني أن خالق هذا الكون بما فيه من دقة هو صاحب هذه العبارات، فأقف ملياً عند حرف واحد أحياناً، مثلاً: يقول النحاة «ما» بعد «إذا» زائدة. أنا لا أستطيع أن أقبل وجود حرف زائد في القرآن فعندما يقول الله تعالى: ﴿ **وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ...**﴾[٦] لا يمكن الاستغناء عن «ما» في هذه الآية، فإن لها دوراً تؤديه ومعنى تشير إليه.

مثال آخر قوله تعالى: ﴿ **فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ** ﴾[٧] وقوله تعالى: ﴿ **وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا** ﴾[٨] فأسقط التاء في الآية الأولى مع يظهروه بمعنى التسلق، وأبقاها في الآية الثانية مع النقب، وبالرجوع إلى القرآن تبين لي أن التاء هي للجهد. فتسلق الجبل أسهل من نقبه؛ ولذلك أسقطت التاء في الأولى وأبقيت في الثانية.

إلغاء الترادف متعب ولكنه يشعرك بعظمة القرآن وهذه طريقتي ومنهجي في التفسير وأنا في هذه الأيام مشغول بالتفريق بين الإسراف والتبذير. وأنا أعترف بصعوبة منهجي وبأنني بشر يخطئ ويصيب؛ ولذلك أرى ضرورة تهذيب هذا المنهج.

الآيات البينات: سمعنا منكم الدعوة إلى فهم جديد للإعجاز القرآني، فما هي أسس هذه النظرة للإعجاز القرآني؟

د. شحرور: أنا أعتقد أن الجانب البياني من القرآن بُحِث بما فيه الكفاية ألا نستطيع أن نركز البحث على الجانب الآخر من القرآن وهو جانب الدقة العلمية. وكما قلت يتمثل الإعجاز في الجمع بين الجمالية والدقة. وهذا الأمر يمكن أن يدركه من يعرف العربية ومن لا يعرفها.

الآيات البينات: يمكن أن نشير إلى طريقتين في التعاطي مع النص القرآني:

الأولى: أن نعمد إلى آية من آيات كتاب الله كآيات الإرث، فنقول: إن هذه الآيات نزلت إلى قوم محددين في زمن محدد ولسنا مخاطبين بها، وهذا رأي تبناه بعضهم.

الثانية: وهي الخيار الذي اعتمدتَه أنت وهو أن نأخذ آية الإرث ونقبلها ونؤمن بأننا

مخاطبون بها ولكن نفهمها بشكل يؤدي إلى نفس النتيجة التي أدت إليها الطريقة الآنفة الذكر. فالآية التي تقول: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾[٩] عندما نرسم لها خرائط الإرث ونوزع النسب بالشكل الذي فعلته لا يبقى للذكر مثل حظ الأنثيين. فلماذا لا نختار الخيار الأول بصراحة منذ البداية رغم أننا لا نوافق عليه؟

د. شحرور: الشيء الذي أتفق معك ومعهم فيه هو أن تطبيق هذه الآية وفهمها والتعامل معها هو أمر تاريخي، أما الآية نفسها فلا. وأنا استعملت طريقة التحليل الرياضي لقراءة هذه الآية.

وقد انطلقت في فهمي لهذه الآية من تساؤل مفاده أنه لماذا أشار الله إلى الذَّكَرِ مرة واحدة؟ فلماذا قال: ﴿**لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ**﴾، ولم يقل: «للذكر مثلا حظ الأنثى»؟ ولماذا ثنى الأنثى ولم يثنّ كلمة مثل؟. على مستوى الإعراب لا فرق بين التعبيرين. فالأفراد المذكورون في الآية ثلاثة: ذكر وأنثيين، بينما لو ثَنَّى كلمة مثل لكان ورد ذكر وأنثى فقط. وعلى هذا الأخير لا مجال لمخالفة الفقهاء في ما ذهبوا إليه، ولكن الله عدل عن هذه الصيغة إلى صيغة أخرى؛ بحيث إن الذَّكَر ثابت في الآية والمرأة متغير، ففي حالات الإرث توجد ثلاثة احتمالات لوجود المرأة:

١- أنثيين.

٢- فوق اثنتين.

٣- تحت اثنتين.

فالذكر يأخذ مثلا حظ الأنثى عندما يكون وحده مع أنثيين، وليس في ذلك ظلماً أو ترجيحاً للرجل على المرأة،

فعندما يصدر قانون عام يراعى فيه مصلحة الناس جميعاً ولا يراعى فيه مصلحة حالة خاصة وقد برهنت أن قانون الإرث الإسلامي عادل من خلال ملاحظة مجموع ما تأخذه النساء بالقياس إلى مجموع ما يأخذه الرجال وهذا يمكن إثباته إحصائياً ورياضياً. نعم، لا يحصل التساوي على مستوى الأفراد؛ ولذلك سماه حظاً؛ لأنَّ لا يد للإنسان فيه، فليس باختيار الإنسان أن يكون رجلاً مع امرأتين أو أكثر أو أقل.

وتوجد احتمالات لحالات الإرث هي:

أن يكون عدد الإناث ضعف عدد الذكور، هنا يأخذ الذكر مثل حظ الأنثيين كما في رجل وامرأتين ورجلين وأربعة نساء وهكذا، فيأخذ الذكور حصة مساوية لحصة الإناث.

وقس على ذلك سائر الاحتمالات المذكورة في الآية. وأنا أتهم التفسير التراثي بإشكالية

خطيرة على مدى أربعة عشر قرناً، عندما فسروا قوله تعالى: ﴿نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ بـ اثنتين فما فوق. كيف يمكن أن نفهم هذا المعنى من الآية المذكورة.

الحياة الطيبة: بالمناسبة يقول بعضهم بشيء من الاستغراب والاستهجان إن هذا القرآن كان بين أيدي المسلمين أربعة عشر قرناً وقرأوه، ولم يفهموه، فأتى محمد شحرور في القرن الرابع عشر ليفهمهم إياه.

د. شحرور: ما قيل عن القرآن في عصر صدر الإسلام والقرآن متكافئان في نظر هذا القائل، والفرق بيني وبينه أنني لا أرى أنهما متكافئان فالقرآن شيء وما قيل عنه وفي تفسيره شيء آخر. فعلم المواريث بالنسبة لي تاريخي وأما آية الميراث فليست تاريخية. فهل حاول غير محمد شحرور أن يطبق نظريات الرياضيات الحديثة على القرآن ليتوصل إلى النتائج التي توصلت إليها نفسها، إلا إذا قيل: إن القرآن نزل إلى قوم مضوا ولا يحق لغيرهم التعامل معه ومحاولة فهمه فعندما يصح كلام هذا الشخص.

الحياة الطيبة: في بحثك عن قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[١٠] تبني تحليلك لهذه الآية على أن الله أنزل لباس التقوى ليواري سوءات الناس وتبدأ بذكر الاحتمالات الواردة في الآية، هل هو المعنى المجازي أم غيره؟ وكأنه فاتك أن لباس التقوى المذكور في الآية هو غير ما أنزل الله، فالحديث عن لباس التقوى مستأنف ولا علاقة له باللباس الذي أنزله الله.

د. شحرور: أنا كنت في مقام التفريق بين أنزل ونزَّل فأنا أرى أن الإنزال فيه عملية معرفية لها علاقة بوعي الإنسان والتنزيل له علاقة بالنقل الموضوعي. ومن هنا، عبر عن اللباس بالإنزال؛ حيث إن الله علَّم الإنسان الخياطة عبر أحد الأنبياء وهذا هو الإنزال ولم ينزل له لباساً جاهزاً، وكذلك يذكرون في تاريخ العلوم معضلة عجز العلم عن حلها حتى الآن وهي: أنه كيف اكتشف الإنسان الحديد مبكراً مع أنه فلز لا يوجد صافياً في الطبيعة، وبالرجوع إلى القرآن نجد أنه تعلمه عبر أحد الأنبياء أيضاً؛ ولذلك يقول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾[١١] ولم أكن في مقام توضيح المراد من «لباس التقوى».

الحياة الطيبة: ولكن تحليلك لكلمة لباس التقوى في كتابك: «نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي» مبني على الاتحاد بين الكلمتين.

د. شحرور: ربما، يحتاج الأمر إلى مراجعة لأتأكد.

الحياة الطيبة: بمراجعة تاريخ التفسير نلاحظ أن السنة تمثل أحد أهم روافد تفسير القرآن وفهمه، ولكن الدكتور شحرور يدعو عملياً إلى إلغاء السنة تقريباً من خلال تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[١٢] بأن الأسوة تتمثل من خلال تحويل المطلق إلى نسبي، فكيف يمكن تحويل المطلق إلى نسبي؟

د. شحرور: أنا أعتقد بأن الفرق بين التوراة والإنجيل من جهة، والقرآن من جهة أخرى، أن الأولين كتابان سماويان نزلا من عند الله ولكن لمرحلة خاصة. فعندما تقرأ الإنجيل تشعر بركاكة –بغض النظر عن الترجمة– وذلك لأنه ليس لنا، وإنما لقوم في زمن خاص. والقرآن ليس كذلك فالقرآن مطلق ولكن قراءاته نسبية بمعنى أنها منسوبة إلى جهة. وأوضِّح ذلك: بأن القرآن كتاب كافٍ لإقامة المجتمع الإنساني ولكنه غير كافٍ لإقامة دولة في حدود التاريخ والجغرافيا، فالذي أقام الدولة المحدودة بالتاريخ والجغرافيا هو محمد بن عبد الله(ص) فالعالم اليوم يتشكل من مجتمع إنساني واحد ومن ١٦١ دولة. وقد أضاف النبي(ص) بعض الاختلافات من خلال السنة ليقيم الدولة وهذه الدولة لا تحمل الطابع المطلق أبداً. فالنبي بنى الدولة في مقام النبوة لا في مقام الرسالة. والرسول يأمر وينهى في مجال الحلال ولا يحلل ولا يحرم وهذه الأحكام لا يقاس عليها. وهنا لابد من التفرقة بين السنة الرسولية وبين السنة النبوية، وهذه الأخيرة هي أوامر إدارية تنظيمية أو تدبيرية. والضابط العام الذي يميز بين السنة النبوية والرسولية أن الأخيرة هي التي مارسها النبي لأول مرة، فالأكل باليمين ليس سنة رسولية؛ لأنه أتى قبله كثيرون أكلوا باليمين.

فما هي الأمور التي سنّها سيدي رسول الله(ص) لأول مرة ولم يسبقه إليها أحد؟ النبي(ص) صلى العصر. ولم يصلِّها أحد غيره قبله وعلى هذا القياس، فهل من أحد فرَّق بين السنَّتين. وأما في السنَّة النبوية فلا مجال للتحريم والتحليل فالحرام شمولي أبدي لا يمكن الخروج عنه وهو أمر خاص بالله تعالى.

والإنسانية في كثير من تشريعاتها لم تخطئ فأنا أعتقد أن المحرمات ثلاثة عشر أمراً، وكل التشريعات البشرية تقريباً تراعي هذه الأمور فلا يوجد قانون يجوِّز قتل النفس أو شهادة الزور. نعم، بعض البرلمانات أباحت اللواط والزنا وهذا خروج عن كتاب الله سوف تدفع ثمنه فإن الله يحمي محرماته، وقد لا نعرف كيفية ذلك. وفي الختام أنا لم ألغ السنة وإنما وضعتها في إطار آخر غير الإطار الذي وضعها فيه الفقهاء.

الهوامش

(١) سورة النور: الآية ٣.
(٢) سورة الفجر: الآية ١.
(٣) سورة الفجر: الآية ٢.
(٤) سورة النور: الآية ٣١.
(٥) سورة المؤمنين: الآية ٦.
(٦) سورة البقرة: الآية ٢٨٢.
(٧) سورة الكهف: الآية ٩٧.
(٨) سورة الكهف: الآية٩٧.
(٩) سورة النساء: الآية ١١.
(١٠) سورة الأعراف: الآية ٢٦.
(١١) سورة الحديد: الآية٢٥.
(١٢) سورة الأحزاب: الآية٢١.